تعريف بالكتاب

أوليفر تويست هو اسم طفل لقيط ولد فى قرية تبعد عن (لندن) شمالا بنحو خمسة وسبعين ميلا ، ماتت أمه على أثر ولادته وأطلق عليه ساعى الملجأ الذى نشأ فيه اسم تويست على حسب المصادفة التى اتفقت له يوم وصوله الى الملجأ ، اذ كان من عادة الساعى الذى يوكل اليه تسلم اللقطاء أن يخصص حرفا من حروف الأبجدية لكل يوم من أيام الأسبوع ، وكان حرف التاء هو حرف ذلك اليوم فسماه باسم يبدأ بالتاء وهو اسم تويست ، وهكذا تبدأ سلسلة المصادفات التى صحبت هذا الطفل فى كل مرحلة من مراحل حياته .

وجاءته المصادفة الثانية حين وقعت عليه القرعة للشكوى من قلة الطعام فى الملجأ ، فان المشرفين عليه كانوا يتبعون فى ادارته نظاما صارما لا يسمح بطلب شىء يزيد على مقرراته التى يتخذونها ويعتبرون الشكوى منها تمردا عليهم وعلى السياسة الاجتماعية التى قضت باقامة هذه الملاجىء ، وهى سياسة ترمى الى الخلاص من زوائد السكان باعتبارها نفاية لا تصلح للبقاء ، وانما يترك لها الاختيار بين التجويع البطىء فى ملاجىء الصدقة والجوع العاجل بعيدا منها . فلما طال الأمر على لقطاء الملجأ وأعياهم الصبر على قلة الطعام وغثاثته تآمروا فيما بينهم واتفقوا على أن يتقدم بالشكوى من تصيبه القرعة ، فأصابت تويست وأصابه من جرائها الطرد العاجل ، بعد الاعلان عن استعداد الملجأ لتسليمه الى من يقبله ويكتب على نفسه عهدا بتربيته لقاء بضعة جنيهات .

وبعد التردد بين المساومين وقعت قرعته على امرأة تسمى السيدة (سواربرى) قبلته على هذا الشرط ولم يقبلها الطفل المغضوب عليه ،

لأن المعيشة فى بيتها كانت أسوأ وأقسى من معيشة الملجأ ، مع الحرمان من عشرة الزملاء والأنداد وفيها بعض الترفيه الذى يعين الطفل الصغير على احتمال الشدة والجوع .

وهرب تويست وهو يزمع فى نفسه أن يقتحم العاصمة القريبة التى يسمع عنها الأعاجيب ولا يخشى أن يصيبه فيها مصاب أشد عليه من بلائه بالملجأ وبلائه بسيدة الدار ، فالتقى — أول ما التقى من أهل المدينة — بطفل فى نحو العاشرة يقاربه سنا ويشبهه حالة ويدرى من أمر مدينته ما ليس يدريه الغلام الريفى الوافد اليها ، وعلم هذا الطفل أن تويست يبحث عن المأوى ولا يعرف أحدا فى العاصمة الواسعة يقصد اليه ، فأغراه بالمبيت معه حيث يبيت وقاده الى مسكن مظلم مزدحم بسكانه المتشردين ولكنه أكل فيه وشرب ووجد هناك كفايته من الطعام والشراب والضحك والمرح ، ولم يلبث أن عرف سبب هذا الضحك وهذا المرح حين رأى الأطفال يحاولون أن يختلسوا من رب الدار كل ما يطويه فى جيوبه ويبرزه على صدره من النقد والزينة ، واذا برب الدار رجل يهودى يسمى فاجن ، عريق فى صناعة اللصوصية ، يجمع أولئك الصغار عنده ويغريهم بالطعام والشراب والمأوى والضحك والمرح ليعلمهم صناعة النشل ويرسلهم الى البيوت روادا لكبار اللصوص الذين يقدرون على السطو والاغتصاب ، اذا دعا الأمر الى المصارعة واطلاق النار .

وفى أول بعثة خرج فيها تويست « للتمرين » مع اثنين من زملائه صادفهم السيد (براونلو) مستغرقا فى القراءة ، فنشله أحد الزميلين وجريا معا فجرى تويست وراءهما فزعا من هذه الحركة فلم يحسن التسلل كما فعل صاحباه وتنبه السيد المستغرق فى مطالعته فرفع الصوت بالاستغاثة وأدرك الناس تويست وهو ينتفض رعبا وتعبا فأبى السيد (براونلو) أن يسلمه الى الشرطة اشفاقا عليه ، وقال للجمع المزدحم حوله أن الطفل برىء وأنه لمح قبله طفلين آخرين أفلتا من

المطاردين ، فانصرف الشرطة وذهب (براونلو) بتويست الى داره لأنه عرف منه حقيقة حاله فرأى من المروءة والرحمة أن يؤويه ولا يسلمه الى صحابة السوء بعد نجاته منها على يديه .

وعلم فاجن مقر تويست فلم يزعجه افلاته كما أزعجه الخوف من افشائه لسره وسر عصابته ووكل به فتاة من تلاميذه تسمى (نانسى) لتحتال على لقائه والعودة به الى الدار .

وكان (براونلو) قد لمح بين الغلام وبين صورة فتاة مودعة عنده شبها قريبا ، فخطر له أن لهذه المشابهة سرا ، وأعتقد أنه قد يكشف هذا السر من استطلاع تاريخ الغلام على قدر ادراكه لوقائع ذلك التاريخ ، وانتظر أن يأخذ فى هذا الاستطلاع بعد عودة الغلام من المكتبة التى أرسله اليها ببعض الكتب ليردها اليها ويعود برهنيتها ، فلم يعد اليه الغلام وحسب الرجل أنه قد غلبت عليه عادة السوء فهرب بالكتب والنقود وعاد الى فاجن وتلاميذه .

أما الذى حدث فعلا فهو أن الغلام عاد الى كهف اللصوص فعلا ولكن بغير اختياره ، وانما تربصت به الفتاة (نانسى) حتى لمحته فى طريقه الى المكتبة فعانقته وأبت أن تتركه لسبيله ، واجتمع الناس على صياح الغلام وصياحها فأفهمتهم أنها أخت هذا الغلام الهارب وأن أمهما توشك أن تموت على سرير المرض حزنا على هذا الولد العاق الذى هجرها وأطاع صحبة السوء ليسرق معهم ويلعب على هواه ، وصدقها بعض الواقفين لأنهم رأوا فى يديه الكتب فحسبوها من مسروقاته وانتزعوها منه ثم ساعدوا الفتاة على الذهاب به الى الأم المزعومة ، انقاذا لها من الحسرة والموت .

وما هو الا أن يعود تويست الى قبضة فاجن حتى يدفع به الى غارة من غارات السطو مع بعض اللصوص الخبيرين بهذه الغارات ، ليستعينوا به على دخول الدار من احدى نوافذها قبل الهجوم عليها ، فيجرح تويست فى هذه الغارة ويحمله أحد اللصوص ثم يلقى به فى حفرة على

المطاردين ، فانصرف الشرطة وذهب (براونلو) بتويست الى داره لأنه عرف منه حقيقة حاله فرأى من المروءة والرحمة أن يؤويه ولا يسلمه الى صحابة السوء بعد نجاته منها على يديه .

وعلم فاجن مقر تويست فلم يزعجه افلاته كما أزعجه الخوف من افشائه لسره وسر عصابته ووكل به فتاة من تلاميذه تسمى (نانسى) لتحتال على لقائه والعودة به الى الدار .

وكان (براونلو) قد لمح بين الغلام وبين صورة فتاة مودعة عنده شبها قريبا ، فخطر له أن لهذه المشابهة سرا ، وأعتقد أنه قد يكشف هذا السر من استطلاع تاريخ الغلام على قدر ادراكه لوقائع ذلك التاريخ ، وانتظر أن يأخذ فى هذا الاستطلاع بعد عودة الغلام من المكتبة التى أرسله اليها ببعض الكتب ليردها اليها ويعود برهنيتها ، فلم يعد اليه الغلام وحسب الرجل أنه قد غلبت عليه عادة السوء فهرب بالكتب والنقود وعاد الى فاجن وتلاميذه .

أما الذى حدث فعلا فهو أن الغلام عاد الى كهف اللصوص فعلا ولكن بغير اختياره ، وانما تربصت به الفتاة (نانسى) حتى لمحته فى طريقه الى المكتبة فعانقته وأبت أن تتركه لسبيله ، واجتمع الناس على صياح الغلام وصياحها فأفهمتهم أنها أخت هذا الغلام الهارب وأن أمهما توشك أن تموت على سرير المرض حزنا على هذا الولد العاق الذى هجرها وأطاع صحبة السوء ليسرق معهم ويلعب على هواه ، وصدقها بعض الواقفين لأنهم رأوا فى يديه الكتب فحسبوها من مسروقاته وانتزعوها منه ثم ساعدوا الفتاة على الذهاب به الى الأم المزعومة ، انقاذا لها من الحسرة والموت .

وما هو الا أن يعود تويست الى قبضة فاجن حتى يدفع به الى غارة من غارات السطو مع بعض اللصوص الخبيرين بهذه الغارات ، ليستعينوا به على دخول الدار من احدى نوافذها قبل الهجوم عليها ، فيجرح تويست فى هذه الغارة ويحمله أحد اللصوص ثم يلقى به فى حفرة على

قارعة الطريق حيث ينزف دمه ويغلبه الأعياء والنوم الى الصباح فيوقن من الموت ان لم يسعفه أحد بالعلاج السريع وتقوده قدماه الى الدار التى جرح فيها ويحس أهلها براءته وشقاء حاله وهو يروى لهم قصته فينقذونه مرة أخرى من أيدى الشرطة ويتبرعون بعلاجه من الجرح الذى أوشك أن يقضى عليه .

وبعد الاتصال بين أسرة الدار وبين براونلو ينجلى سر الصورة ويتبين لتويست ان أهل الدار من قرابته ، وأن القدر قد ساقه الى المكان الوحيد الذى يأوى اليه فى أمان بين النعمة والحنان .

أما فاجن وعصابته فانها تنتهى الى ما تستحقه من الجزاء : فاجن يغضب من (نانسى) فيحرض عليها عشيقها ويلقى فى روعه أنها كشفت سره وسر العصابة فيقتلها ، وتدور الدائرة على العشيق فيموت خنقا وعلى فاجن فيحكم عليه بالشنق ، وعلى بقية العصابة فتعمل فيها أيدى الشتات بين العقاب والتشريد .

هذه خلاصة موجزة جدا من الصفحات ، أقل ما فيها شأنا قصة الرواية ، ولكنها فيما عدا حوادث القصة آية من آيات الفن الرائع فى تصوير الشخوص ووصف الحياة الاجتماعية بين الحاضرة والريف بكل ما اشتملت عليه من أخلاق وعادات ومن عوارض الزمن ولوازم الطبيعة البشرية الخالدة ، ولا يتأتى نقد هذه الآية الفنية — الطبيعية — من جانب واحد لأن الجوانب المتعددة التى عرف بها المؤلف تكبره أن يستغرقه نقد الناقدين من وجهة واحدة وتوجب على ناقديه أن يحيطوا به من وجهات كثيرة قد تجمعها هذه الوجهات الثلاث التى تنتظم غيرها من أسباب التقدير والتعريف ، وهى الوجهة الفنية والوجهة الاجتماعية والوجهة الانسانية .

فمن الوجهة الفنية يلاحظ أن الرواية من بواكير الشباب وان ديكنز كتبها قبل الخامسة والعشرين ونشرها متسلسلة فى صحيفة من صحف المتفرقات فكان هذا التسلسل من الأسباب التى اضطرته الى الاكثار

من المفاجآت والمصادفات ومن مواقف التشويق والتعليق بين نهايات الفصول المنشورة وأوائل الفصول المنتظرة ، وكانت غضارة الصبا احدى الدواعى الطبيعية لما تخلل هذه الرواية من « العاطفيات » المعهودة فى بواكير الشباب .

ومن الوجهة الاجتماعيـــة يلاحظ أن الرواية كتبت فى العصر الذى برزت فيه مشكلة الفقر ومشكلة التطور فى جميـــع أنحـــاء الحيـــاة الانجليزية — بل الأوربية على جملتها — من اجتماعية أو سياســية أو فكرية . وعولجت هذه المشكلة على اعتبارها حينا مشكلة «الفائض» من نفاية السكان ، وحينا على اعتبارها مشكلة الحقوق الدستورية ، وحينا آخر على اعتبارها فرعا من فروع قضية التطور وتنازع البقاء ، وحينـــا غير هذا وذاك على اعتبارها مشكلة المال والعمل وتفسير التـــاريخ من الناحية المادية الاقتصادية ، وكاد تطبيق هـــذه « النظريات » جميعا يسفر عن سخافة كل فلسفة تهمل الحقائق الانسانية والعوامل النفسية لتحصر مقادير الانسان — فردا أو جماعة — فى نظرية مـــن نظـــريات الحساب والأرقام أو نظريات الفروض والآراء ، وهذه هى السخافة التى كان ديكنز يسخر منها كلما سخر من الفلاسفة ودعاة الأخلاق والفضائل على الأوراق ، وقد سخر منها — قبله — كبـــير أدباء اللغـــة الانجليزية شكسبير كما أشـــــار الى ذلك أحـــد المتحدثين فى الحوار التالى لهذا التلخيص . فان شخصية مالڤوليو Malvolio من رواية الليلة الثانية عشرة تجمع عيوب الاصلاح « الفلسفى » كافة وعيوب المصلحين الذين يتصدون لعلاج المشكلات الاجتماعية بما يفرضـــونه على النـــاس مـــن قواعدهم الخلقية ، ومن أحكامهم المحدودة ، ومن دعواهم التى لم تخل من حب الذات وضيق الأفق وتصوير الطبيعـــة البشرية على صـــورة جامدة لا تتحول هى الصورة التى حصروا فيها عقولهم وآمالهم ، من حيث يشعرون أو لا يشعرون .

أما الوجهة الانسانية فتلك هى الوجهة التى تبادر القارىء من كل

صفحة كتبها هذا الكاتب العظيم منذ بدأ حياته القلمية الى أن ختمها قبل ختام حياته . فليس فى وسع قارىء أن يحسب على ديكنز شعورا يلحقه بطائفة من طوائف بنى الانسان وينفيه عن طائفة أخرى ، وليست له زمرة يخصها بالحب أو زمرة يخصها بالنقمة ، وليست ظنونه الحسنة أو السيئة وقفا على انسان لأنه فقير معطوف عليه ، أو وقفا على انسان آخر لأنه غنى محسود ، ولكن الانسانية عنده أسرة واحدة موزعة المحاسن والعيوب ، أهل للثقة فى مواضعها وأهل للريبة فى مواضعها ، حيث تقضى الحقيقة والعطف السليم ، ولا يزال للخير عنده موضعه من الدنيا ومن النفس الانسانية ، قد تحجبه حادثة من الحوادث أو حين من الأحيان ولكنه لن يحتجب على مدى الحوادث فى كل زمان ومكان .

قرأت منذ أيام حديثا للسير سدنى كوكريل Cockerel عن ذكرياته لزيارة بيت تولستوى الكاتب الروسى الكبير قبل قرابة نصف قرن ، فروى بين تلك الذكريات أن قصاص الروس الأشهر قال له انه شديد الاعجاب بديكنز « وأن أبطال رواياته جميعا هم أصدقاء له (شخصيون) » .

تلك شهادة العبقرية الخالدة لفن ديكنز فى شخوص أبطاله . فان الشهادة لعبقرية ديكنز نفسه أمر مفروغ منه ، وانما العظمة الفنية فى شهادة تولستوى أن يصدق وصف الطبيعة البشرية هذا الصدق الذى يتخطى الأزمنة والأوطان واللغات ، فيقترب الجانب الانسانى فى رجال ديكنز ونسائه وأطفاله ، وبين أغنيائه وفقرائه ، حتى يلقاهم كاتب الروس لقاء الصديق للصديق بعد انقضاء جيل وعلى مسافة الألوف من الأميال .

عباس محمود العقاد